تحريم الأموات

ما أكثر ما رن فى أذني طريف ، وما انطبع فى حافظته فى القرية ، والمدينة ، والعاصمة من ألفاظ . ولكن ما أقل ما بلغ من تلك الألفاظ قرارة نفسه ، وامتلك زمام ضميره وميوله .

ولعل قول من أنباه من المعلمين لمقدرته على دراسة الحقوق ، وذهابه فيها شأواً بعيداً ، من أروع تلك الألفاظ القليلة فتنة لنفسه ، وخياله ، وتوجيهاً لعقله ، ونشاطه . فما كاد طريف يلم بهذا الأمر ، حتى هام بالحقوق هيام المتنبي بالسيادة ، والأفغاني بالجامعة الاسلامية ، وجزم أن لا خير له فى هذا الوجود ، ولا رجاء ما لم يدرس هذا العلم ، ويصبح علما من أعلامه ، وإماماً من أئمته

ولما هزت الأحداث السياسية ، فى غضون وجوده فى الكلية ، ناحية من نواحى أقطارنا العربية ، تاقت نفسه

إلى تلك الناحية كما ناقت نفس عبد الله بن أم مكتوم إلى القادسية ، فاتجه اليها ماضى العزيمة ، متوثب العواطف ، منطلق الخيال . ليقبس من جامعتها القومية ، ثقافتنا العربية الخالصة ، والحقوق خاصة ، وليقفل اليها بعد تمام تحصيله في أوربا أستاذاً للحقوق ، بل ليقف قلبه وحياته على خير معهد يضمن تحقيق طموحه ، ومساهمته فى رفع الضيم عن بلاده .

إلا أنه ما كاد يسمع جواب رئيس الجامعة ، حتى بهت ، وظل كالمصعوق واجماً جامداً فى مكانه ، لا يتحرك ، ولا يتكلم إلى أن نهره الرئيس قائلا :

— « أأصم أنت ! أم تريد شيئا آخر » ، فتمايز من فرط الغضب ، وهم بغسل الاهانة بالاهانة ، لولا أن تنبه حالا إلى أن انتصاف الضعيف من القوى ظلم ، وأن الذود عن كرامته جناية ، فانصرف قريح القلب ، دامع العينين ، محطم الأحلام ، مشبوب الغيظ ، يتمنى بجدع الأنف لو استطاع أن ينقض على ذلك الرئيس ، وأن يمزقه أشلاء

ويحدث نفسه قائلا : « أحق أن أروع ما انعقد فى صدرى من أحلام يذوب ويتلاشى على شفتى طبيب إخصائى بمعالجة العيون ؟. . . أحق أن معهد الحقوق فى جامعة محراب العروبة وسدنتها لم ينشأ إلا لتعليم المبصرين ، كما يريد هذا الرئيس ، وأن ليس لى سوى أن أمتهن مهنة تشييع الجنائز ، ومنادمة الموتى ، كما يريد هذا الرئيس . . . — لا . لا . إن الذين أوقدوا ببلاغتهم نار العروبة فى كل صدر عربى ، وأقضوا بإيمانهم مضجع من كانت « برلين » نفسها ملعباً لسنابك خيولهم لن يسكتوا عن ظلمى ولن يعجزوا عن تسجيل إسمى قسرا فى معهد الحقوق ، ولو كان خصمى منيع الجانب ، محترم الهوى ، والشهوات » .

ولكن ، أنى للحق أن ينتصر ، وللعدل أن يفوز ، فى مجتمع يرفرف فوق ربوعه علم غريب .

إن تدخل من استنجد بهم طريف من أركان المدينة والعاصمة ، ومحراب العروبة لم يغنه فتيلا ، وما كان له أن يغنيه ، ما دام رئيس الجامعة يومئذ مسلكا واسعا من

مسالك السلطة الأجنبية إلى ضمير الشعب، فطوى طريف على لظى ثمانية عشر شهراً من السعى العنيد ، وارتد من محط طموحه ، ومنهل أحلامه ، كئيباً ليس فى صدره قلب ، ولا فى وجهه دم .

فقلت له ، والألم يحز فى قلبى لكثرة ما لاقى من أوصاب وهموم .

ويحك يا طريف ، أليس الأولى بك أن تقنع من العيش بالكفاف ، فتعود إلى مسقط رأسك ، وتستقر فيه بين أصدقائك ، وأبناء قريتك ، إماماً مدرساً ، هادىء البال ، من أن تجوب الفيافى والأمصار . غصيصاً معذب النفس مقهوراً ؟ قال :

لو كنت أسعى وراء العيش لأخذت بنصحك ، بل لما احتجت اليه يا صديقى ، ولكنى لا أطلب المعرفة عامة ، والحقوق خاصة كسباً للرزق ، وانما أطلب ذلك ، لأعلم بل لأغيب عبر الحقيقة ، غيبوبة الشاعر عبر الخيال ، شأن من شغفوا بالعلوم ، فغدت المعرفة كل حياتهم

إنى أهوى الخفوق ، وليس لى فى الحياة سواها مأمل ، ولا عن امتلاك ناصيتها محيد ، وانى لمدرك بعون الله مأملى ، فليس يفوقنى من سبقنى من أقطاب هذا العلم ، وأساطينه عزماً ولا طموحاً ولا شىء يصدنى عن مجاراتهم ، والسير كما ساروا . أليسوا بشراً مثلى ؟ . . أليس بين بردى ، من العزم ، والجلد ، وشدة البأس وقوة الارادة ما فى أعطافهم . .

قلت :

« ليس هذا غرضى يا طريف ، ولكن لا يغيبك أن الناس جميعاً كما قال جل المفكرين ، من الشر جبلوا ، وعلى اللوم والأثرة فطروا ، وانك لن تلقى منهم سوى ما لقيت من رئيس الجامعة » .

قال :

صه يا صديقى ! لقـــد ظلمت بحكمك المعريين ، والامام على ، وصلاح الدين الأيوبى ، وأشباههم من نفحات العدل المطلق الذين يفاخر بهـــم آدم الزمن والأجيال . فالبشر وإن لم يكونوا بفطرتهم ملائكة متخيرين كما

ادعى بعض كبار المفكرين الغربيين فانهم ليسوا كما ترى أبالسة ملعونين ، بل كان الناس ولا يزالون على ما قال لنا التاريخ وترينا المشاهدة والتجربة ، كالأرض التى منها خلقوا وعليها نموا وتكاملوا . واذا كان من الأرض وفيها على وفرة أشواكها ،وصخورها للورد والماس مكان فان للأريحية فى أسرة آدم أيضاً مكاناً .

فاذا لم أجد فى صـــــدر رئيس الجامعة أثراً لهذه الأريحية ، وصدقت فيه نبوءة مديرنا الفذ الذى نصح الىّ أن لا أذهب الى هـذه الجامعة لادخالى جامعة سواها لا تنكباً عنها ولا إيثاراً لغيرها ، بل اعتقاداً منه أن «أولى أمرها ليسوا من أحفاد الوليد علم النجدة العربية ،ومضمد جراحات الموتوريين » فلن أعدم هذه الأريحية فى لندن أو باريس ، فى برلين أو موسكو أو سـواها من المدن الجامعية التى لا بد وأن أجد بين رجالها رئيساً بشراً » .

وفعلا ، لم يمض على مغادرة طريف الجامعة ،

ووصوله العاصمة طويل أمد حتى كان ينطلق كل يوم صباحا من الكلية الى معهد الحقوق ويعود اليها عند المساء فرحاً جذلان تغمره البهجة ويلهج قلبه بالشكر لله ، والإكبار لذلك المدبر العربى الانسان خليفة الوليد العربى الانسان .